إعداد الأستاذة: سميحة خليفي

المقياس: نقد ما بعد الحداثة

المستوى:أولى ماستر

تخصص: الأدب الحديث والمعاصر

عنوان الدرس: النقد الثقافي

النقد الثقافي والأنساق المضمرة في النقد العربي

قراءة في كتاب "المرأة واللغة"

لعبد الله الغذامي أنموذجا

التعريف بصاحب الكتاب

ناقد أدبي و أكاديمي سعودي، ولد يوم 15 فبراير 1946 بمدينة عنيزة منطقة القصيم وسط المملكة العربية السعودية، مارس التدريس بكلة الآداب بجامعة الملك سعود بالرياض، وكان أول من أدخل مصطلح الحداثة إلى الساحة الثقافية السعودية في مواجهة المحافضين، وهو صاحب مشروع في النقد الأدبي ولآخر حول المرأة واللغة.

من أعماله: كتب مقالات نقدية في صحيفة الرياض منذ ثمانينات القرن العشرين،

- كتاب بعنوان الخطيئة والتكفير وهو مشروع ماجستير 1993.
- قراءة في الأنساق الثقافية العربية.
- النقد الثقافي وقراءة الأنساق.
- تأنيث القصيدة العربية.
- حكاية الحداثة في المجتمع السعودي.
- المرأة واللغة.

2/ بطاقة فنية للكتاب:

العنوان: المرأة واللغة.

الكاتب: عبد الله محمد الغذامي.

الناشر: المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء، المغرب.

الطبعة الثالثة: 2006.

ينقسم المبحث إلى ثمان فصول:

- الفصل الأول: الأصل التذكير..؟
- الفصل الثاني: تدوين الأنوثة.
- الفصل الثالث الجسد بوصفه قيمة ثقافية.
- الفصل الرابع: اختلال اللغة، غزو مدينة الرجال.
- الفصل الخامس: من ليل الحكي إلى نهار اللغة "تأنيث المكان".
- الفصل السادس: المرأة ضد أنوثتها.
- الفصل السابع: الخراب الجميل، تسترد اللغة أنوثتها.
- الفصل الثامن: تأنيث الذاكرة.

يطرح عبد الله الغذامي في مقدمة كتابه الإشكالات التالية:

صارت اللغة فحولة وقمة الإبداع هي (الفحولة) فهل يا ترى تفرض اللغة فحولتها على المرأة أم أنَّ في اللغة مجالا للأنوثة إزاء الفحولة..؟ وهل تراها تملك القدرة على تأنيث اللغة أو أنسنتها لتكون للجنسين معا، أم أن اللغة قد بلغت منها الفحولة مبلغا لا سبيل إلى مدافعته..؟ (المقدمة ص 8،11)

وبناء على ذلك فإن عبد الله الغذامي سلط الضوء على الكتابات الأنثوية النسوية، باعتبار المرأة نسق ثقافي مضمر، سلبت حقوقها وجرت العادة أن تبقى حبيسة الحكي، أي يسند عليها فقط عنصر الحكي بينما يسند للرجل عنصر الكتابة.

ففي **الفصل الأول: الأصل التذكير**، يتحدث الكاتب عن الحق الشرعي والطبيعي للمرأة، حيث يقول: "تظهر المرأة وكأنما هي (كائن طبيعي) مطلق الدلالة وتام الوجود من حيث الأصل، ولكنها تحولت بفعل الحضارة والتاريخ إلى كائن ثقافي جرى استلابها وبخس

حقوقها لتكون ذات دلالة محددة ونمطية، ليست جوهرا وليست ذاتا وإنما هي مجموعة صفات". (ص 16)

ولكن الكاتب هنا يشير إلى نقطة مهمة جدا، حول الأخطاء التي يقعن فيها بعض الكاتبات كمي زيادة في الأعمال الكاملة، ونوال سعداوي في كتابها: الأنثى هي الأصل، (وهي بذلك ترد على المقولة الشهيرة لابن جني التذكير هو الأصل)، وذلك حينما يكتبن بضمير المذكر دون أن يشعرن، ويقدم عبد الله الغذامي شواهد عديدة من كتاباتهن، حيث تقول مي زيادة في أعمالها الكاملة مخاطبة النساء " أيتها السيدات ...أنا المتكلمة ولكنكن تعلمن أن ما يفوه في الفرد نحسبه نتاج قريحته وابن سوائحه..". (ص 19)

أما نوال سعداوي فيذكر لها كثيرا من الشواهد مثلا تقول في كتابها (الأنثى هي الأصل) "إن القلق لا يحدث للإنسان إلا إذا أصبح واعيا بوجوده.. وأنه قد يفقد نفسه ويصبح لا شيء.." (ص 18)

وحاول الكاتب في المبحث الثاني بعنوان الكتابة رجل والحكي أنثى تفكيك وفضح المنظومة الثقافية والذهنية، التي سادت طويلا عبر العصور التاريخية وفي مختلف العلوم و المعارف، خاصة أنه ركز على الفلسفة الإغريقية التي تجعل من الرجل هو السيد والمرأة هي العبد جسدا فقط بلا عقل، حيث يقول "وهكذا كتب الرجل وكتب عن المرأة وخص نفسه بالكتابة وترك لها الصفات الفطرية و التلقائية، ترك لها (الحكي) لكي تكون الكتابة رجلا والحكي أنثى". (ص 37)

كما عمل الكاتب على فضح الخطاب الأنثوي في المبحث الثالث:الأصل التذكير الذي تتحكم فيه الذكورة إلى حد بعيد، ولم يستطع أن يؤسس لأدب أنثوي خالص فيقول "إن الذكورة تفرض نفسها على المرأة إلى درجة أن النساء أنفسهن ساهمن في هذا التحويل المستمر باتجاه الذكورة " (ص 49)، ويستدل على ذلك بعدة أمثلة لأحلام مستغانمي، هدى بركات، وفي هذا السياق يقول:

"هاهي أحلام مستغانمي تشير إلى أنها وجدت التحدث بلسان الرجل يسهل عليها الكتابة ويساعد على السرد، ويجعلها تقول ما تعجز عن قوله كأنثى، بينما ترى هدى بركات أن شخصية الرجل تقدم لها حقلا أكثر اتساعا وتعقيدا مما تقدمه شخصية المرأة ". (نقلا عن ص 49)

وهو في ذلك الطرح يستفز حواس الكاتبات ليدركن مدى مساهمتهن في جعل الرجل هو الفحل، حيث يطرح عليهن الإشكالية التالية:

"هل أصبح (الإسترجال) هو طريق المرأة الأوحد في معركة الثقافة..؟ أم أن حلولا أخرى تختبئ في ضمير اللغة وتنتظر المرأة كي تحفر عنها..؟ (ص 51)

أما **الفصل الثاني المعنون بتدوين الأنوثة**، يتحدث عبد الله الغذامي في هذا الفصل على شخصية شهرزاد في حكايات ألف ليلة وليلة، ويشير في البداية إلى الدور المهم الذي كانت تلعبه شهرزاد في كل ليلة بفضل عنصر الحكي، الذي من خلاله جعلت شخصية شهريار تنهار أمامها كي يتحول إلى طفل وديع ينتظر من الأم المداعبة و التسلية، ولكن الكاتب أسقط ذلك على الواقع حيث يقول: "من هنا صار الإمتاع في القص صورة للعلاقة الزوجية بوصفها علاقة إسعاد وإمتاع للرجل، وجاء استخدام شهرزاد للغة ليبلغ أقصى درجات التوظيف اللغوي فاستخدمت الشعر والمثل والخيال والتشويق و سحرية التمثيل.. تماما مثل حال المرأة في المطبخ وتوسلها بكافة سبل التفنن بالطبخ وتزويق الطعام وتزيينه بالبهارات.. وألف ليلة وليلة هي نوع من أنواع الطبخ الذي يتنوع كل ليلة ويتجدد من أجل إشباع الزوج وإرضاء نهمه وإمتاع شرهه ". (ص 68)

كما يشير إلى أن النجاح الذي حققته شهرزاد كان ثمنه باهظ، ذلك حيث تخلت عن سيادتها كونها سيدة، وتحولت إلى خادمة، ويقدم الكاتب أمثلة عدة في ذلك كزبيدة زوجة الرشيد، ثم تتحول الجارية إلى أم تنجب لشهريار ثلاثة ذكور، يقول الكاتب "هذا الدور الذي تتحول فيه المرأة من كائن مقموع ومستعمر، من جارية إلى كائن مبجل وإلى سيدة تملك أن تقول وأن تفعل، هو أن تكون (أما)، وهو دور ذو بعد تاريخي أسطوري وعميق "(ص76)

أما **الفصل الثالث الجسد بوصفه قيمة ثقافية**، فتطرق الكاتب إلى تفكيك البنية النصية لحكاية الجارية (تودد) وهي عبارة عن حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة لشهرزاد (من الليلة 370 إلى الليلة 453)، وذلك ليبين دهاء وذكاء وفطنة المرأة وإن كانت جارية، كيف تستطيع التحكم في عقول الرجال بعلمها وجمالها وحنكتها، وهنا إشارة إلى أن ضعف المرأة قد يتحول إلى قوة معنوية تضاهي قوة الرجل، لذا يقول عبد الله الغذامي "تلك هي ثقافة الجسد حسبما تقدمها حكاية (تودد) حيث توظف المرأة أهم ممتلكاتها الطبيعية لكي تخترق أسوار الرجال وتدك حصونهم، وهي هنا قد امتلكت جسدا أنثويا لا نظير له، وكان من الممكن لهذا الجسد الخارق في جماله أن يكون مصدر ضعف بوصفه إغراءا جنسيا مشاعا لأن صاحبته جارية، غير أن هذا الجسد الجميل يتحد مع الثقافة في أرسخ مستوياتها فيتحول الضعيف إلى قوة خارقة تسلب من يراها وترميه.. وبهذا تحقق المرأة انتصارات لا نظير لها في تاريخ الثقافات". (ص 97،98)

أما **الفصل الرابع: احتلال اللغة غزو مدينة الرجال**، استحضر الكاتب في هذا الفصل حكاية من حكايات المرأة وهي مهرجان قيس، الذي كان يقام بمكة كل عام، أين

تخلو النساء وحدهن أربعة أيام دون حضور الجنس الذكري، فيقمن بتأسيس عالم خاص أو مدينة خاصة لوحدهن، يتقمصن شخصية الرجال ويدلون بدلوهن في اللغة والشعر والغناء، ولكن الكاتب من خلال هذه الحكاية لا يلفت انتباه القارئ فحسب إلى مواطن انشغال المرأة عن الرجل وحب التفلت والتخلص منه، وإنما يتعدى ذلك إلى تفكيك الذهنية العربية للمرأة التي لم تستطع بناء مدينة خاصة بها كليا وإن غاب الرجل فيها حسيا، لذلك يطرح الكاتب بعض الإشكالات قائلا " هل ستكتب بقلم الرجل و تلبس لباسه وتمثل أدواره مثلما فعل نساء مكة في مهرجان القيس؟ أم ترانا ستشهد عصرا جديدا تغير فيه المرأة اللغة مما عاهدناه عن اللغة من فحولة وذكورية..؟ ". (ص 126)

الفصل الخامس من ليل الحكي إلى نهار اللغة "تأنيث اللغة": ينقل الكاتب في هذا الفصل المعانات والألم اللذين تتذوقهما المرأة الأدبية حينما تحاول الخروج من الحكي والولوج إلى عالم اللغة والإفصاح، وهو تنقل من الهدوء إلى العاصفة، حيث يقوم الباحث بتفكيك الخطاب الأنثوي عبر مباحث هذا الفصل (الكتابة والاكتئاب تعقيم المرأة، تأنيث المكان)، واستدعى ذلك شخصيات أدبية مارسن السلطة اللغوية وأقحمن مجال الكتابة أمثال مي زيادة، باحثة البادية: ملك حفنى ناصف،.. ويعرض لنا وسائل الضغط التي واجهتها المرأة الكاتبة:

- اتهامها بأن رجالا يكتبون لها.
- تزهيدها في الكتابة و تخويفها منها.
- تعريضها لليأس من شباة القلم.
- إيصالها إلى حافة الجنون كما حدث لباحثة البادية ومي زيادة.
- اتهامها بالتطفل على الكتابة وأن العلم والثقافة ليسا للمرأة وأن كتابتها دلع. (ص142)

كما تحدث الكاتب عن الصالون الأدبي لمي زيادة الذي كان يقام في كل يوم ثلاثاء في المبحث الأخير (تأنيث المكان)، مستعرضا فكرتها في تأنيث المكان ولتكون هي سيدة المجالس، تقودها بأدبيتها، ولكن رغم ذلك تسقط في وحل الغربة الذاتية لأن فحول الأدباء تعاطفوا معها فقط، ولم يصرحوا بجدية، فيقول الكاتب " وهنا تنتهي المرأة فريسة للرجل الذي عاقبها أقسى عقاب لأنها تسللت إلى مملكته وتحرشت بسلطانه، وبدلا من أن تنجح المرأة في تأنيث المكان تولى المكان ذاته تذكير الأنوثة وإدماجها في سياق مذكر".(ص155)

الفصل السادس المرأة ضد أنوثتها، يستهل الكاتب هذا الفصل بمقولة غادة السمان "ما أروع وما أسوأ أن تكون امرأة " في ذلك دلالات خفية قابعة وراء هذا الكلام أراد

الكاتب الكشف عنها من خلال مباحث هذا الفصل (الأستاذة طلعت، المرأة الكاتبة وعقلية الأقلية).

قام الكاتب بتفكيك رواية عيناك قدري لغادة السمان من خلال شخصية البطلة الأستاذة طلعت ذات النظارة السوداء، حجة لتغطي أنثويتها ولتظهر بصفة الرجل لأن الجسد عند غادة السمان هو ضعف الأنثى، ترفضه رفضا قاطعا لأنها تبتغي غير ذلك، كما يقول الكاتب " تريد القلم و الكتابة غير أنها لما تزل ترى أن الجسد المؤنث تركة من تركات الظلام الحالك وليس بعد مقبولا في زمن النهار الساطع". (ص 167)

الفصل السابع الخراب الجميل تسترد اللغة أنوثتها: أما الكاتب في هذا الفصل يقوم بتفكيك الخطاب اللغوي لأحلام مستغانمي في روايتها ذاكرة الجسد، ويكشف من خلال هذا التفكيك عن الخبايا النصية والميتناصية ويتقرب أكثر إلى النص ليحدد أهداف الكاتبة، إذ تربعت على عرش الكتابة، وفتحت مجال تأنيث اللغة حينما جعلت المتكلم هي أنثى، وتركت الذكر المتمثل في بطل الرواية (خالد) ناقص الجسد (مبتور اليد) مما يدفعه للإنصراف من الكتابة والفحولة، ولكن الكاتب عبد الله الغذامي يرى أن ما توصلت إليه أحلام لغويا ونصيا يبقى ناقصا لأن الذاكرة الداخلية للغة ما تزل ذاكرة فحولية (ذكرية) إذ يقول " وهنا تتأنث اللغة... نعم ولكن الذاكرة الداخلية للغة لما تزل ذاكرة الفحولة ويظل فعل هذه الذاكرة هو الذي يسجل نهاية اللقاء ونهاية النص" (ص 205).

الفصل الثامن تأنيث الذاكرة: يرى عبد الله الغذامي أن المرأة لم تحقق ما تريد عبر تأنيث اللغة وأنسنتها، ولم تجد المرأة بدا من أن تكتب مثلما يكتب الرجل، وأن هذا الأخير صار هاجسا لها، متواجدا حسيا في لغتها و ضمائرها، لذا فإن بعض الكاتبات تفطّن إلى ضرورة الكتابة الأنثوية من خلال تأنيث الذاكرة، أمثال كتابات منيرة الغدير (ثنائية الصوت نهاية الفلسفة غابة البيلسان) رجاء عالم في (حكاية الأصلة)، وأميمة الخميس في كتابها (والضلع حين استوى)، سحر خليفة في روايتها (لم نعد جواري لكم).

الخاتمة

يفتح لنا كتاب المرأة واللغة لعبد الله الغذامي الكثير من الأسئلة والتساؤلات والنقاشات التي تدور حول علاقة المرأة باللغة وبالكتابة، وقد عمل الكاتب على تفكيك الخطاب الأنثوي، وكشف مطباته و سلبياته، وقدم البدائل التي ترى بموجبها المرأة المبدعة النور في طريقها للكتابة، وكيفية الممارسة النصية.

يرى عبد الله الغذامي أن المرأة الكاتبة المبدعة لا تستطيع أن تحقق ما تريد في الساحة الأدبية، وأنها إذا أرادت تساوي الرجل لغويا لا يتأتى لها ذلك إلا بعد القيام بثلاثة خطوات وهي:

- تأنيث اللغة
- تأنيث المكان
- تأنيث الذاكرة.